بنو مرين

أصلهم .. ومواطنهم..

تعقيب الأستاذ عبد الله كنون

قرأت في مجلة الدارة الراقية (العدد الأول ، السنة الثامنة الصادر فى شوال ١٤٠٢هـ ـ يوليو ١٩٨٢م) مقالا بعنوان (المرينيون فى المغرب الاسلامى والعروبة فى ضوء الدراسات الأنثروبلوجية) للدكتور عبد الباقى على قصة : كتبه بمناسبة زيارته لقلعة المنصورة ـ كما سماها ـ فى إحدى ضواحى تلمسان ، مع قسم التاريخ لجامعة قسنطينية بالجزائر . وكان أن طلب منه إلقاء كلمة عن هذه القلعة ، ومن أجل الحصول على معلومات عنها لجأ الى المركز السياحى بتلمسان فأمده بنشرة جاء فيها «ان المرينيين عرب رُحَل حاصروا تلمسان سبع مرات» وأشارت الى الحصار الطويل الذى دام نحو ثمانى سنوات من (٦٩٨ ـ ٧٠٦) وشيدوا أثناء الحصار مدينة المنصورة المفتخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها وحماماتها وديارها.)

وإلى هنا والأمر جلى لا اعتراض عليه . لكن الكاتب الفاضل مهّد لهذا الكلام بكلمة أشار فيها إلى ذِكْر (بنى مرينا) فى شعر امرىء القيس وأنشد على ذلك قوله :

فلو فى يوم معركة أصيبوا   ولكن فى ديار بنى مرينا

وألم إلمامة خفيفة بالحرب التى كانت بين الحارث بن عمرو من جدود امرىء القيس وأحد ملوك كندة والمنذر بن ماء السماء ملك الحيرة والتى انتهت بقتل الحارث وولديه في ديار بنى مرينا . وبناء على ذلك فقد استشكل أن يكون المرينيون عربا رحلا ، وهم الذين شيدوا مدينة المنصورة أو قلعتها التى فاقت قلعة الحمّاديين بالإتقان والزخرفة ، ورجح أن يكون لهؤلاء العرب وجود قبل وصولهم إلى المغرب فى مركز حضارى مهم ، عرفوا فيه الاستقرار ودرسوا فن المعمار ، ومن ثم لامحل لوصفهم بالعرب الرحل إلى آخر ما قال .

ولجأ إلى ابن خلدون للفصل فى الموضوع ، ولكنه وجده ينسب بنى مرين الى زناتة من قبائل المغرب فقال (يبدو أن لونا من الاختلاط وقع بين بنى مرين وقبيلة زناتة حتى ظن ابن خلدون أنها بطن من زناتة) .

وبعد تتبع أقوال أخرى لابن خلدون فى هذا المنحى حكم عليها بالغموض ثم قال (وهكذا انتقل هذا الخلط الى بقية المؤرخين المحدثين حتى الشيخ عبد الرحمن الجيلالى : فهو يقول فى التاريخ لبنى مرين : «المرينيون هم فخذ من بطون القبيلة العظيمة زناتة ، كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غربا على ملوية ، وجنوبا إلى نواحى سجلماسة وبصحراء فِكَيكَ») الخ

وبمقتضى كلام الدكتور يكون الأمر قد اشتبه على جميع مؤرخى المغرب من قبل ابن خلدون ، وعمدتُهم ابن أبى زَرْع صاحب كتاب القرطاس ، وكذا مَنْ بعده وأشهرهم الناصرى صاحب كتاب الاستقصا ، وهذا شىء غير مقبول ، وقد أوقعه فى ذلك الاعتماد على بيت امرىء القيس السابق الذكر ، وهو بيت أنشده ابن منظور فى لسان العرب فقال : « وبنو مرينا الذين ذكرهم امرؤ القيس فقال :

فلو فى يوم معركة أصيبوا   ولكن فى ديار بنى مرينا

هم قوم من أهل الحيرة من العباد ، وليست مرينا بكلمة عربية ، وكذلك قال صاحب القاموس فيهم ، ومزجه فى التاج عند شرحه فصار هو نفس نصّ اللسان .

والعباد بكسر العين قوم من شتى قبائل العرب اجتمعوا على دين النصرانية بالحيرة فسموا بذلك

وبهذا وحده يظهر أن بنى مرينا لاصلة لهم ببنى مرين المغاربة :

فبنو مرين آخر اسمهم نون وبنو مرينا آخر اسمهم ألف . ثم ان كونهم (متنصرّة) من شتى القبائل يمنع أن يكونوا هم بنى مرين المغاربة الذين لم يعرف عنهم قبلُ ولا بعدُ انتماء لدين النصرانية ، وكونهم بعض العباديين يدل على أنهم أقلية ممن تتألف منهم جماعة العباد ، والمرينيون قبيلة كبيرة من قبائل زناتة . فأين تجيء هذه الفئة القليلة منهم ؟ بل أين تجيء جماعة العباد كلهم من أهل الحيرة ، من بنى مرين القبيلة المغربية التى رأينا مواطنها تضرب فى جهات متباعدة من بلاد المغرب ؟! .. والكاتب على حق فى إعجابهٖ بالقلعة أو مدينة المنصورة ، وتَعجُّبه من أن يكون بُناتها عربا رحلا كما وُصفوا في نشرة المركز السياحى بتلمسان . ولكن هؤلاء البدو الرحّل كانوا قد نزحوا الى المغرب من الصحراء قبل بناء المنصورة بنحو ثمانين عاما . ونشبت بينهم وبين الموحدين ملوك المغرب والأندلس حروب طويلة قضوا فيها على الدولة الموحدية وحلوا مكانها فى الاستيلاء على شئون الدولة وتأسيس المملكة المرينية . والمغرب يومئذ فى قمة ازدهاره علما وحضارة وعمرانا . وكان السلطان يوسف ابن يعقوب المنصورسابع ملك منهم يسعى فى توحيد المغرب الكبير كما كان عليه الأمر أيام الموحدين . فمن ثم قامت الحرب بينه وبين صاحب تلمسان . وكان الحصار الطويل الذى بنيت المنصورة أثناءه .

قال فى الاستقصا بعد أن ذكر زحف السلطان يوسف المرينى على تلمسان وتحصّن صاحبها وقومه بالجدران وتعويلهم على الحصار .. « ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران ، وصيّرها فى وسطه ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه . وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلّل اليها بقُوت . وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لابل الطيف . واستمر مقيما عليها كذلك مئة شهر . ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط الى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه . قصراً لسكناه . واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا يحرزهما . ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة . واتخذوا البساتين وأجروا المياه . وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب ، صيّر (١) عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله . فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ، ونفقت اسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة . فكانت من أعظم امصار المغرب وأحفلها . إلى أن خربها آل يَغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها »(٢)

ونشير إلى أهل بنى مرين : فهم فخذ من زناتة كما سبق القول ، وزناتة قبيلة عظيمة من قبائل المغرب يدخل تحتها أقوام وفِرَقٌ عديدة من البطون والأفخاذ ، وهم ينتسبون الى العرب ويقولون إنهم أبناء برّ بن قيس عيلان ، فهم من مُضرَ ، ولهم فى ذلك أشعار وحكايات عن هجرة أوائلهم إلى المغرب واختلاطهم بأهله وفى ذلك يقول شاعرهم عبد العزيز الملزوزى من أرجوزته المسماة « نظم السلوك فى ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك » :

فجاورت زناتة البرابرا فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدل منتهى أحوالهم
بل فعلهم أربى على فعل العرب فى الجود والإيثار ثم فى الأدب

هذا قول نسّابتهم ، ولكن النسابة العرب ينكرون ذلك ومنهم ابن حزم وغيره ، والله أعلم .

ولمزيد من العلم عن بنى مرين وأصلهم ينبغى الرجوع الى كتاب القرطاس السابق الذكر وكتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية وهو لمؤلف مجهول نُرجِّح أنه ابن أبى زرع صاحب القرطاس ، والى كتاب روضة النسرين فى تاريخ دولة بنى مرين ، وإلى كتاب الاستقصا ، وتاريخ ابن خلدون وسائر الكتب المغربية المختصة وهى كثيرة .

* * *

○ هوامش ○

(١) يعنى أنفق .

(٢) الاستقصا ج ٢ ، ص ٣٩ .